

لقد أشرنا من قبل إلى أن المختار السوسي شرع في إنجاز سيرته الذاتية في سن الأربعين، أي بعد أن استقر على شيء من العزلة في منفاه ب(إلغ)، مكنته، فيما يبدو، من التفرغ للتأمل وللكتابة. وكان قبل هذه الفترة، كما تكشف سيرته عن ذلك، قد ارتقى في طلب العلم، وانخرط في العمل الوطني، وصار له من الشهرة ما بوأه مركز الأستاذية بمراكش. ومن الظاهر أن سبب النفي كان بسبب نشاطه العلمي، على الأقل كما تهيأ له في الظاهر، فيما كانت سلطات الإقامة الفرنسية ترى وراء النشاط العلمي أهدافا سياسية تزعزع الاستقرار.

فبلوغ سن الأربعين، على هذا الأساس، كان في الواقع رتبة ثقافية واجتماعية وسياسية. تلك الرتبة النابعة أيضا مما اكتسبه، خلال تطوره المتواصل، ضمن شبكة من العلاقات المختلفة (البيت العائلي، مدارس سوس، روابط أسرية، أسفار ورحلات، شيوخ وقرارات) وفي فضاءات متنوعة (إلغ، مراكش، فاس، الرباط). ويبدو لي أن الشعور بهذه الرتبة، كما تجلت في حاضر كتابة السيرة الذاتية (1938)، هو، بمعنى ما، خلاصة الوعي بالأنا الفردية وسيرورة تشكلها وهي تسير نحو الاكتمال في آن.

إن امتلاك ضمير الأنا المتكلم للتعبير عن الوجود الفردي، ليس صيغة نحوية للدلالة على الحضور وقت النطق فقط، كما لا يمكن النظر إليه كمقولة تقوم بوظيفة التواصل على مستوى التلفظ (الفعل الفردي لاستعمال اللغة) حصرا، بل هو كذلك وعي بالتشكل المعنوي الذي يضيف على الذات صفات خاصة ليست لغيرها، وإحساسا بالتميز لا يشاكلة التباس، وهوية مستقلة تتأسس على الفردة المصطلفة بين الجواهر الفردية الأخرى. فالضمير، بمعنى الشخصية هنا أيضا، يستمد فرادته، كما يقول بول ريكور Ricoeur<sup>(1)</sup> من وحدة حياته معتبرة ككلية زمنية فريدة بدورها، تميزه عما سواه.

فالتكلم في السيرة الذاتية يتمثل حضوره ككاتب، لأنه يقوم بفعل النطق والصياغة، ويستحضر، في الآن نفسه، حضوره الآخر، أنه المتعددة الأبعاد والمستويات، وهي تنهض كعلامة على الوجود والتطور والفعل، من خلال الأحداث والتطورات والسياقات المروية. إن المختار السوسي عندما يشرع في التحقق من سنة مولده، ينجز، في الواقع، فعلا تأريخيا به يعين السنة (1318) والشهر (صفر)، وينجز معه فعلا آخر يمكن تسميته ببداية الوجود. وإذا كان الفعل التاريخي مجرد تحقيب يشير إلى زمن جامد، فإن الفعل الثاني، بداية الوجود، يعتبر منطلقا دلاليا لمختلف التطورات

1- Soi-même comme un autre, Seuil 1990, Paris, p. 175